

الدولة والجماعة

—

شعيب



323.3: Sh56dA

شعيب - احمد
الدولة والجماعة

FEB 13 F4X1

323.3:
Sh56dA

JUN 1

JUN 13

DATE DUE

17 SEP 1986



323.3

Sh56dA

C.1

AL-DIWAR WA AL-JAM'AT

بقلم الكاتب التركي الكبير
المرحوم أحمد شعيب بك

ترجمها من اللغة التركية

محمد الدين الخطيب

محرر في المؤيد

58765

— حقوق الطبع محفوظة —

القاهرة

١٣٣٠ - ١٩١٢

مطبعة المؤيد

Cont. July 1943



أقدم هذه الرسالة الصغيرة

هدية

إلى مترجم كتاب «روح الاجتماع»

عبد الدين الخطيب

علم الجماعة في الشرق

بقلم

العلامة المورخ رفيق بك العظم

قل من عني في الشرق الأدنى بعد العلامة (ابن خلدون) بالكتابة في الاجتماع ونواميسه والدول وما يلازمها من قوانين النمو والدثور ، ليس ذلك لضعف فطري في ملكات العلم عند الشرقي ، بل لضعف طارئ سببه الحكومات وزعمائها . لأن كل كلام في الاجتماع والجماعة يتناول بالضرورة الحكومات وقوانينها ، ولم يكن من المحلل في كل عصر أن يتناولها العلماء بالبحث لا سيما من الوجهة الفلسفية المبينة على تشريح المسائل وتشخيص الأمراض والعلل ووصف العلاج الناجع فيها النافع للجماعة وحكومتها .

ومن الغريب أن تنقطع سلسلة البحث في الاجتماع في الشرق بينما كان الغربيون يخطون الخطوات الأولى للخروج

من ربة الاسر للتقاليد القديمة ويتخذون القوانين الطبيعية لهذا الوجود إماماً في تكوين الجماعات على نظام معروف وطريقة مرتبة تقضي بالترقي التدريجي الكافل بالحياة السعيدة للجماعات الغربية . حتى كان من ذلك أن استحكمت العلل القاتلة في جسم الجماعات عندنا بينما كان الغربيون مجدين بالبحث في علل المجتمعات وأمراض الحكومات يتبعونها بالأبحاث الدقيقة ويوالونها بالأدوية الناجمة حتى بلغوا منزلة في الرقي لهذا العهد كانوا فيها قدوة الأمم والمبرزين في حلبة السبق في كل شيء .

ولما فاض نور المدنية الغربية على الشرق وأخذت عوامل الترقى الاجتماعي تتسرب اليه بحكم الجوار والمعاملة والمعاشرة والاحتكاك وبات من الصعب الحيلولة بين العقول ومتناولها مما تحت الحس والقيام في وجه الجماعات التي تطلب السير إلى الأمام بحكم الطبيعة التي لا يصادم حكمها مصادم الآغلب له واستكان لقوته - أخذت تنحل تلك القيود القديمة من أعناق المفكرين وذوي البصيرة في الشرق ويحل لهم الخوض

فيما حرم عليهم من قبل ولو الى حد متساو مع تقدم الجماعة
البطية. ومن ثم بدأ الشرقيون، ونخص بالذكر منهم العثمانيين
من السوريين والمصريين والأتراك وغيرهم، يتناولون
بأبحاثهم علوم الاجتماع وأحوال الجماعات السياسية بقدر ما
تسمح به ظروف الزمان والمكان وتطالوا المرى ما دون نه الغريون
من هذه العلوم فتناولوها بالترجمة والبحث، فترجموا الى العربية
« أصول النواميس والشرائع »^(١) لمونتسكيو و « أصول
الشرائع »^(٢) لبنتام و « روح الاجتماع »^(٣) لجستاف
لوبون و « طبائع الاستبداد »^(٤) لألفيرى. كما ترجم الى

(١) ترجم الجزء الاول منه يوسف بك أضاف المحامي وطبعه

في مصر سنة ١٨٩١

(٢) ترجمه أحمد فتحي أفندي زغلول رئيس النيابة العمومية

(سعادة أحمد فتحي باشا وكيل نظارة الحقاينة) في مصر وطبعه

سنة ١٣٠٩

(٣) ترجمه سعادة أحمد فتحي باشا زغلول وطبع سنة ١٣٢٧

(٤) ترجمه الرحالة (ك.) وهو المرحوم السيد عبد الرحمن

الكواكبي مع حسن التصرف والتعديل فيه وطبع سنة ١٣١٧

التركية كتاب « الاستبداد »^(١) لألفيري و « روح
 الاقوام »^(٢) لجستاف لوبون - وهو غير روح الاجتماع -
 وربما ترجم اليها غيرهما مما لم يقع نظرنا عليه .
 وقد طرقتوا أيضاً باب الكتابة في الجرائد والمجلات في
 تشريح أحوال الجماعة وأصول الحكومات وفلسفة التشريع
 على وجه يشعر أن الشرقي بدأ يطبق أعماله على نواميس الحياة
 الصحيحة وعلى قوانين الوجود المعقولة المبنيتين على العلم
 والاختبار بطرقه باب البحث في العلوم السياسية والاجتماعية
 وتقديره قدرها بعد أن حرمت عليه مدة غير قليلة ، ولو تيسر
 له وصل سلسلتها من عهد (ابن خلدون) الى اليوم بالبحث
 والاستقصاء والكتابة لنضجت هذه العلوم في الشرق نضوجاً لم

(١) ترجمه الدكتور عبدالله بك جودت صاحب مجلة (اجتهاد)

التركية وطبع في جنيف

(٢) ترجمه الدكتور عبدالله بك جودت أيضاً . وطبع في مصر

سنة ١٩٠٨ . وقد أخذ مترجم هذه الرسالة (الدولة والجماعة) ينقله الى

اللغة العربية وسينشر قريباً

يجعل الشرقيين في تلقيها والاستفادة منها عالية على الغربيين لهذا
العهد وما بلغ نظام الجماعات الشرقية من الانتشار والتبدد مبلغاً
اضطرب فيه جبل معظم الحكومات الشرقية لا سيما
الاسلامية واستؤصل بحكم الطبيعة استقلال اكثر الشعوب
الشرقية فاصبح خيراً في الغابرين وذكرى وموعظة للحاضرين.
وممن عرف من الكتاب العثمانيين بطرق هذه الموضوعات
الهامة والبحث في احوال الجماعات لهذا العهد (أحمد شعيب
بك) الكاتب التركي الشهير الذي اختطفته المنون في هذه السنة
فوجدت به الأمة التركية وفقد العلم بفقده ركناً يأوي اليه
طلابه من العثمانيين .

لم يكن في المملكة العثمانية قبل اعلان الحرية من يستطيع
الجهير بما عنده من العلم بمثل هذه الفنون الا اذا كان خارج
المملكة أوبث آراءه في عقول النشء بثاً في غضون التدريس أو
غيره . وكان أحمد شعيب رحمه الله مدرساً في مدرسة الحقوق
في الاستانة فكان يدمج آراءه الاجتماعية في دروسه ادماجاً
يكفي أن ينير لتلاميذه السبيل من حيث لا يشعر المراقبون

على العقول والآراء. ولما وضع أساس الحكومة الدستورية في المملكة العثمانية في ١٠ تموز سنة ١٣٢٤ (٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨) وانفجرت أزمة العلم وانطلقت الألسن والأيدى والعقول من عقال التقييد بقيود الرهبة والاستخذاء لسطوة الاستبداد وبرز الكتاب العثمانيون في ميدان الحرية الفكرية كان أحمد شعيب في مقدمة السابقين الى خوض عباب البحث في المسائل الاجتماعية. فكتب فيما كتب من الفصول في (مجلة العلوم الاجتماعية والاقتصادية) التي أنشأها وتولى تحريرها مع جاويد بك والدكتور رضا توفيق بك هذه الرسالة بعنوان «الدولة والجماعة» بلغت الغاية في صحة الرأي والبيان على ما فيها من الاختصار. وقد أراد بها تنبيه قومه الى توخي الصواب في حال نشأهم الدستورية وتجنب الطفرة في تكيف نظام الحكومة لما رآه من تهافت القوم على سرعة التقليد بلا روية ولا صبر.

وقد بحث في هذه الفصول بحثاً دقيقاً في وجوب التدرج في الانتقال من حال الى حال وبرهن على أن من

آيات الترقى الصحيح للجماعات الاهتداء الى مركز التوازن
وهو الأخذ بوسط بين طرفين من التمسك بالقديم والانتقال
الى الحديث وأن الطفرة مضرّة كما أن الجمود مضر أيضاً والتقليد
بجملته نافع اذا وافق الوسط واقترن بالاعتدال .

ومن رأيه جواز تجرد الأمم عن شكلها القديم وتلبسها
بشكل جديد من أشكال الاجتماع لكن مع البطء ومراعاة
أحوال الزمان وروحه ليكون هذا الشكل الجديد خاصاً بها
ملائماً لحالتها . إذ أن روح الزمان التي تنتقل في هذا الوجود
تحمل الضر والنافع فحيث وجدت لأحدهما مستقراً أقترته .

وتلك كلمة حق بوجدنا لو اعتبر بها ودقق فيها كثير من
دعاة الحرية في الشرق اليوم خصوصاً في المملكة العمانية التي
تلبلت فيها الألسن والآراء فاحتاجت في دور انتقالها الجديد
الى حكماء بارعين وأطباء ماهرين يعالجون أمراض الشرق
المزمنة بكل مهارة وأناة وصبر .

وبالجملة فأراء شعيب في فصول «الدولة والجماعة» جديرة
كلها بالنظر والاعتبار حقيقة بالمطالعة . ولذا رأى صديقي

النيور الشغوف بالحكومات الدستورية الصحيحة محب الدين
 افندي الخطيب أن لا يحرم قراء العربية من مطالعتها فجمعها
 في شكل رسالة قائمة بذاتها وعني بترجمتها الى العربية وطبعها
 تكميلاً لفائدتها فترجمها على أسلوب جميل لا يخل بمعنى من معاني
 الأصل رجاء الخدمة العامة التي هي غاية كل محب لترقي وطنه
 وأمته . والله ولي المصلحين

رفيق العظم

الاستاذ احمد شعيب (١)

و

الحالة العلمية والاجتماعية

« في القسطنطينية »

ان الذين درسوا حقيقة عاصمة السلطنة العثمانية واختبروا
سراؤها كانوا ولا يزالون يمتقدون أن العلم هناك قاصر على
حد الشعر المزوق والنثر المنمق والكتب الروائية والرسائل
الادبية. ولم يكن ثمة ما يعارض اعتقادهم الا وجود رجل من
أبناء تلك المدينة شدت طبائعه عن طبائعهم واختلفت طريق
آماله وطريق آمالهم. وهذا الرجل هو الاستاذ (احمد شعيب).
كانوا على ضفاف البوسفور والقرن الذهبي يلجؤون الى
أحمد شعيب كلما أشكل عليهم فهم شيء من مسائل العلم .
ويذكرون أحمد شعيب عندما يشكون قلة الرجال الأكفاء .

(١) نشرت في عدد ٦٢٥٢ من المؤيد بمناسبة وفاة المترجم به

وهو الذي يخطر على بالهم لأول وهلة اذا سموا العلماء
والمفكرين . فيتمثل لهم بمثال العلم الصحيح وقد تحلى بالفضيلة
النقية والذكاء المجسم .

ذهبت أواخر أيام عيد الأضحى بشباب هذا المثال الحي
للعلم والفضيلة والذكاء فكفنته الأيام بمسرات عيدها ، وغسلته
الناشئة المتعلمة برذاذ دمعها ، وفقدت مدينة البنزنيين الجميلة
بفقدته درة يتيمة ، وخلي منبر مدرسة الحقوق من رجل عملاً
فراغه ، واطقطعت عن (مجلة العلوم الاقتصادية والاجتماعية)
وبالتالي عن اللغة التركية روح العلم الصحيح التي كانت تسيل
من دماغه الى قلمه فسطور تلك المجلة العلمية الوحيدة .

لعل القاريء العربي في مصر بلومني على شغلي بعض
أعمدة من المؤيد في كتابة ترجمة لأحد أساتذة مدرسة الحقوق
في القسطنطينية ، وهو ليس من الذين دخلوا في غمار السياسة
ولا من الذين يتردد ذكر اسمهم في مناقشات الاحزاب ،
ولكنه سوف يتبدل رأيه رويداً رويداً كلما تقدم في المطالعة
وعلم أن الذي يقرؤه انما هي ترجمة صحيحة للحالة العلمية

والاجتماعية في تلك العاصمة الجميلة.



ولد أحمد شعيب في (فروق) وتلقى مبادئ العلوم وحقائق الأشياء في محيط حجب الضباب الكثيف معايبه ، وستر جمال المظاهر مثالبه ، وموهت الأغراض مواهبه ، حتى تأصلت الرذيلة في النفوس ، فامتزجت الصداقة بالخيانة والسكينة بالجناية والعلم بالوهم والدين بالسياسة والاطمئنان بالخذر وصلة الرحم بالتجسس والاخلاص بالرياء والصدق بالخوف والازدراء في هذا المحيط تعلم أحمد شعيب وكان لا يجد نفسه الا بين تلاميذ تشبهوا من اخلاق آبائهم وآمال محيطهم وليس بينهم الا من ينتظر مرور سنوات المدرسة ليكون موظفاً في دوائر الحكومة أو جاسوساً لكبار رجالها . ولم تكن المدارس معاهد للعلم الصحيح كما هو شأنها في البلاد الراقية وانما كانت مناصب التدريس تمنح للقائمين بها احساناً وتفضلاً ، واذا حملت آتواء المصادفات الى كراسي التدريس في المدارس العثمانية رجلاً كفوفاً يمتاز عن زملائه بعلمه وفضله وجد أمامه حوائل

وموانع تضطره الى الوقوف عند حد التعليم النظري .
يقولون ان أثر الرذيلة في النفوس يكون على نوعين
متباينين كما أن نفوس الرجال على شكلين مختلفين : فاذا كانت
النفوس صغيرة واطئة ذهب بها تيار الرذيلة مذاهب الهوى
واذا كانت كبيرة سامية ذهبها الى منازعته وزاد فيها الشوق الى
مقاومته . وهكذا كان شأن شعيب عند ما خرج من المدرسة
الثانوية فانه رسم لنفسه أن يدخل مدرسة الحقوق ثم ينصرف
الى منزله الصغير في قسم السلطان سليم ليتعمق في درس العلوم
النافعة ويشرف على الحالة الاجتماعية في وطنه من كوخه
الصغير ، وهكذا فعل فانه ما أتم علومه في مدرسة الحقوق
حتى أخذ يستجلب مؤلفات كبار العلماء في أوروبا ويدرسها حق
الدرس ثم يقابل بين ما تعلمه وبين ما يراه في المجتمع الذي هو
فيه ويدون ملاحظاته في مذكرات صغيرة .



منذ أكثر من عشر سنوات كان ابراهيم حقي بك (حقي
باشا الصدر الأعظم) أستاذاً لعلم حقوق الدول وعلم حقوق

الإدارة وغيرها في مدرسة الحقوق ومستشاراً حقوقياً في
 الباب العالي فاطلع في أحد أجزاء مجلة «ثروت فنون» الأدبية
 على مقالة في «أصول العقوبات الانكليزية» بتوقيع «أ. ش.»
 فأعجبه ما تضمنته من التحقيقات العلمية وتوصل إلى التعرف
 بكتابتها وهو أحمد شعيب وعينه نائباً عنه في تدريس علم حقوق
 الإدارة. فاستمر شعيب علىلقاء المحاضرات الحرة في هذا
 الفن وبدأ يكتب في «ثروت فنون» فصولاً جلييلة بعنوان
 «المصنفون والمصنفات» شرح فيها مذاهب كبار علماء أوروبا
 مثل «ايولاتن» و«جبرائيل مونو»^(١) وصديقه «أرنست
 لافيس» و«جستاف فلوبر» و«تيدور» و«رانك»
 و«مومسن»^(٢) وغيرهم. وكان أعظم ما تطمح إليه نفس
 شعيب تصنيف كتاب في التاريخ، وقد جمع له مصادر كثيرة

(١) كنت قد ترجمت هذا الفصل لمجلة المقتبس ونشر في الجزء

السابع من سنتها الثانية

(٢) ترجم هذا الفصل صديقي الفاضل صلاح الدين القاسمي

ونشر في الجزء ٨ من السنة الثالثة للمقتبس

ومستندات هامة ، ومع ذلك فإنه أحجم عن كتابة صفحة واحدة من هذا الكتاب لأن ما اجتمع لديه من عدته كان قليلا في نظره .

أذكره - وقد كنت تلميذاً له في مدرسة الحقوق - عندما كان يجمع ذاكرته لالقاء محاضراته النافعة على مستمعيه فينسى ما يكتنفه من ضرورات السياسة وتجييش في صدره الشجاعة العلمية فيتكلم بالحقائق التي لم يكن يستطيع أحد غيره أن يفوه بها تحت سماء (فروق) في ذلك العهد بل ولا في عهدنا هذا . كان شعيب يرى أن مرض بني قومه انما هو اجتماعي وأخلاقي أكثر منه سياسي ، ولذلك رأيناه بعد اعلان الدستور كما كان قبله معتزلاً تلك الضروضاء والمظاهر متجنباً شؤون السياسة منصرفاً الى بث علومه التي كان يسمى بها الى ايجاد ثورة اجتماعية واتقلاب أخلاقي وتصورات في الرأي العام مبنية على دعائم قويمه من العلم الصحيح .

بعد أشهر من اعلان الدستور أنشأ شعيب بك مجلة شهرية كبرى في مائة وخمسين صفحة واشترك معه في انشائها

جاويد بك ناظر المالية (السابق) ورضا توفيق بك مبعوث أدرنة
 سموها « مجلة العلوم الاقتصادية والاجتماعية » وفي هذه المجلة
 أخذ شعيب ينشر أهم كتاباته مثل كتاب (الأديان) وكتاب
 (العوامل الاجتماعية) وكتاب (الثورة الفرنسية الكبرى)
 وغيرها من المقالات الفلسفية النافعة مثل (الدولة والجماعة)
 و (التاريخ في القرن العشرين) (١) .

وفي مبحث (الدولة والجماعة) أتى على كثير من القوانين
 الاجتماعية التي لو تدبرها القائلون بالأمر على ضفاف البوسفور
 لأخذتهم من أغلاط كبرى وقعوا فيها . وهو ما فتىء يعلن
 للناس من منبر مدرسة الحقوق ومن صفحات مجلة العلوم
 الاقتصادية والاجتماعية أن ملكات الفرد ليست إلا آرائها
 انتقلت اليه عن جنسه وقومه ، وأن القوانين الصحيحة التي

(١) هي المقالة الاولى من الجزء الاول لمجلة العلوم الاقتصادية
 والاجتماعية وقد ترجمتها بالعربية وجمعتها مقدمة لكتاب التاريخ العام
 تأليف محمد مراد بك المؤرخ العثماني المشهور وهو في ستة مجلدات
 باشرت بترجمتها

يمكن تطبيقها والعمل بها هي التي تكون صادرة عن هذه الملكات الموروثة ، وأن المرافق والأوضاع والنظومات إنما هي ترجمان الحالة النفسية والمرتبة المدنية للأقوام ، وأن تبديلها يجب أن يعقب تبديل تلك الحالة النفسية والمرتبة المدنية بمعنى أن الانقلابات الادارية والسياسية يجب أن تتبع الانقلابات الاجتماعية والأخلاقية والأفلا انقلاب السياسي والتغيير الاداري يظل صناعياً غير طبيعي ولا فائدة من وجوده ، وأن المشترعين الذين وضعوا الشرائع الثابتة والقوانين الحية هم الذين بحثوا عن شكلها في حاجة الأمة وخصائصها فوضعوها على مثالها على حد قول (سولون) الحكيم : «أنا لم أشرع لأهل أثينا شريعة كاملة مصدرها الخيال ، وإنما وضعت لهم قوانين توافق حاجتهم وتلائم استعدادهم » . أما القوانين التي تقننها ما رب السياسة على أثر الفتوحات والثورات والانقلابات فهي لا تبدل غير الأسماء ومتى ارتفع الضغط السياسي ارتفع معه ذلك الاسم لجديد عن الحقيقة القديمة .

كان أصحاب الصحف اليومية على أثر اعلان الدستور

يتغنون كل يوم بأناشيد مختلفة زاعمين أن السلطة انتقلت
 في البلاد العثمانية من يد الفرد الى يد الأمة ، ولكن شعيب
 بك الذي درس حقيقة أمته ووقف على حقيقة العلم الحديث
 كان يناديهم بصوت غير مرتفع صادر من مجلته : « ان نظرية
 سلطة الأمة لا تزال في عداد الخيالات وليس لها في عالم
 الوجود وجود . »

كان فتیان السياسة بعد الانقلاب يظنون أن من السهل
 تطوير الأفكار العثمانية كلها بطور واحد وتوحيد النظام في
 اليمن ومقدونية وطرابلس الغرب والأناضول والاستانة
 والعراق . ولكن شعيب بك كان يقول لهم في تلك المجلة ان
 الوادي الذي احتفرتة العصور والأجيال لا تملؤه الا العصور
 والأجيال واذا أردتم أن لا تنتظروا مئات السنين لتوحيد
 نظام البلاد فابحثوا في خصائص كل قطر من أقطار السلطنة
 عن القانون الذي ينطبق على حاجته ويلتئم مع استعداده .

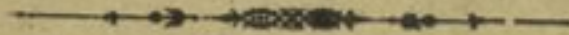


وبعد فان مدرسة الحقوق في الاستانة قد خسرت رجلا

كبيراً كان علمه متوزعاً بين طلبته على السواء أتراكا كانوا أو
 عرباً، على أن الصحف التركية تقول : ان شعيباً لم يمت ما دامت
 كتبه تُقرأ بلغتنا . وعلى هذا فاني أدعو تلاميذه والمعجبين
 بمؤلفاته الى ترجمتها بالعربية وبذلك نكون قد أحسنا الى لغتنا
 وأمتنا والله لا يضيع أجر المحسنين .

القاهرة : ذوالحجة ، ١٣٢٨

محب الدين الخطيب



علم الجماعة

كان البحث في موضوع الجماعة وقوانينها منحصرًا فيما مضى بنفر قليل من المفكرين ، ثم صار اليوم من العلوم التي يكاد يكون درسها والبحث فيها ضرورياً للناس أجمعين .

الفرد والجماعة :

ان بين الفرد والجماعة صلة متينة وارتباطاً شديداً بحيث يمتنع — من الوجهة العملية — أن يوجد أحدهما اذا فقد الآخر . وفي كل يوم يظهر لنا برهان جديد على تلازم علم الجماعة وعلم البشر واستحالة التفريق بينهما ، وعلى ان المسائل الفلسفية والأخلاقية كافةً داخلة في موضوع المسائل الاجتماعية .

الفرد يرت ملكاته وطبائمه عن جنسه وقومه ، وهذا هو معنى الجماعة ، فهي تتبع السنن العامة للحياة الادبية والمادية . وان لعلم الجماعة مساساً وصلة بعلم الحياة ، بحيث يجوز القول بأن الكائنات كلها كانت في بدء تكونها جماعة واحدة عظيمة بما يدخل تحتها من الأجزاء الفردية غير المنظورة . وعلى هذا فلعلم الجماعة رأس العلوم كلها وخلاصة مجموعها .

نظام الامة وأوضاعها تبع لاستعدادها وحاجتها :

يرى الاخصائيون في هذا العلم أن الأوضاع السياسية والاجتماعية لكل قوم تختلف عن مثلها في الأقسام الأخرى اختلافًا بيننا. وأن أوضاع الأمة ترجح حالتها النفسية والمدنية، وأهمية هذه وقيمتها نسبية دائماً. والأوضاع السياسية في تاريخ نشوء الجماعات غاية وعمل أكثر منهما سبب وعامل. ليس طراز الإدارة السياسية في أمة دليلاً على مبلغ حياتها الحاضرة فقط، بل هو فوق ذلك دليل على الأدوار الإدارية التي تقلبت على الأمة في أزمنتها الماضية. وليس في استطاعتنا أن نختار لإدارة البلاد المرافق والأوضاع والنظامات التي تدلنا النظريات على أنها أرقى وأحسن من غيرها. وقد برهن التاريخ على أن المشرعين الذين وضعوا الشرائع المخالدة إنما نجحوا في ذلك بعد أن اكتشفوا مبلغ حاجة الأمة. وما أصبح وأجمل قول (سولون) : « أنا لم أشرع لأهل أثينا شريعة راقية مصدرها الخيال، وإنما وضعت لهم شريعة تلائم استعدادهم وتوافق حاجتهم. »

في استطاعة تاريخ الحضارة أن يبرهن على أن المرافق
والأوضاع والنظامات ترجمان لحاجة الأقسام . ونحن نرى
أن هذه المرافق والأوضاع تتساوى وتماثل عند الأقسام التي
بلغت المستوى الواحد من الارتقاء . وليس في التاريخ مثال
واحد يدلنا على أن أمة استطاعت أن تبديل مرافقها وأوضاعها
بالقسر والقوة .

نعم ، ان ذلك قد يكون على أثر الفتوحات والثورات ،
ولكن الذي يتبدل انما هو الاسم فقط : هذه جزيرة
(كورسيكا) التي تحكمها فرنسا فانها — بالرغم من وجود
محافظ وقضاة وقانون وشرطة فيها — لا تزال مملوءة بأهل
الدعارة وقطاع الطريق ولا تزال طبقاتها الاجتماعية محتفظة
بنظامات القرون الوسطى . وهذه (ايرلاندة) لم تقويد
الانكلز الحديدية على تغيير شيء فيها : ان لطبائع الأمم
وفطرها سلطة على مرافقها وأوضاعها ، وان تبديل هذه منوط
بتغير ما تربت أدمغة الأمة عليه .

لا طفرة في الارتقاء :

لم يكن للمشرعين والمقنين أن يضطروا قوماً الى العمل بقانون جاؤا به من عند أنفسهم . وان الثورات المدهشة والفتوح العظام لم يتمكنوا من حمل الناس على الخضوع لأوضاع ونظامات لا تتفق مع حاجتهم الا الى وقت محدود . وان مثلهم في ذلك كمثل الحيوان يضطر الى ان يعمل عملاً يخالف طبيعته فهو لا يقدر أن يصبر على هذا العمل الا دقائق معدودات ومتى ارتفع عنه الضغط عاد الى طبيعته التي فطر عليها . وكذلك شأن الأمم في أوضاعها ونظاماتها التي لا تنطبق على حاجاتها فانه لا يمر زمن قليل حتى تعود الأوضاع الى ما كانت عليه قديماً ولا يبقى على الحقيقة القديمة من النظام الجديد الا الاسم الجديد . من هذا يعلم أن النظامات والأوضاع ترجمان حاجة الأمة ومثال شعورها ولا تتبدل تلك الا بتبدل هذه ، والتبدل لا يكون الا بالتدرج الارثي البطي . اذ الباعث على نشوء النظامات والأوضاع الاجتماعية هو نفس الباعث على نشوء الكائنات في العالم . من أجل هذا كان من المستحيل

حدوث التبدل الفجائي ، ومن سنة هذا المجتمع أن يكون
التغير فيه نتيجة لمجموع التعديلات الخفية التي تحدثها أجيال
الناس على توالي العصور . وإنما نحن نشعر بالتغير عند ما تؤيده
القوانين الوضعية فنظن أنه أثر لتلك القوانين غير عالمين أنه
نتيجة حركة متواصلة وعمل كبير .

إن وظيفة المقتنين الحقيقيين هي البت في تأييد العادات
التي رسخت في الرأي العام بعض الرسوم ومقاومة الضار
منها وغير المفيد . وربما كانت مطالعة قانون الأمة أدلّ عليها
من مطالعة تاريخها ، لأن الوقوف على ما رأى القانون أن
الأمة في حاجة إليه وعلى الشؤون التي يأمر بها أو ينهى عنها -
يكفينا للحصول على فكر صحيح عن الحالة الاجتماعية التي
أجأت إلى ذلك .

ارتقاء الأفراد والأقوام والأوضاع والعقائد لا يكون
إلا تدريجياً فإذا ذكر التاريخ أمة بأنها كانت ذات حضارة راقية
جاز لنا الحكم بأن حضارتها ثمرة ماضٍ طويل ، ولو كان
هذا الماضي مجهولاً لدينا فاللغة والأدبيات لا يوجدان فجأة

ووجودهما دليل على أن لهما ماضياً قديماً . مثال ذلك المدنية الأوربية الحاضرة فإنها نتيجة عمور كثيرة . واوربالم تصل الى هذه النتيجة الا باجتياز عقبات الانقلابات ، ومن قبيل الأوهام والخيالات أن تحلم أمة بأنها تجتاز تلك الدرجات على جناح السرعة .

نشأة الدول وتنقض رأي (روسو) في (العهدة الاجتماعية) :

كان (يوسف دومستر) و (بونالد) قد ارتآيا رأياً في نشأة الدول ببناءه على الأقاليم المذهبية ، ثم تبين الآن فساد ذلك الرأي الى حد أنه لم يعد يستحق المناقشة والجدال فيه ، لأنه ليس مؤمساً على شيء من مبادئ العلم وقواعده . وكذلك شأن النظريات التي وضعها الديمقراطيون وفي مقدمتهم (جان جاك روسو) .

بلغ الرأي الديمقراطي غاية النضج والكمال في أواخر القرن السادس عشر ، وبدأ البروتستان يتركون نظرياته عقب قتل هنري الثالث . وفي القرن السابع عشر ظهر (هوبس) و (جوريو) فدافعا عن هذه النظريات وانتصرا لها ، ولكن

النتيجة كانت في الحقيقة أحداً من : اما استبداد الفرد أو
استبداد الجماعة .

ثم جاء (روسو) أخيراً فليخص كل تلك النظريات في
كتابه (العهدة الاجتماعية) :

يرى روسو أن أفراد البشر تنازلوا عن استقلالهم الطبيعي
تلقاء ما حصلوا عليه من الأمن والثقة فتعاهدوا على أن يكونوا
جماعة لا أفراداً . وبهذه العهدة ولد لهم كائن أخلاقي مشترك
بينهم .

وأن الفرد فاضل بطبعه ، ولكن الرذائل والشورر انما
تصدر عن الجماعة . فالأفراد فطروا على حب العدل والنزوع
الى الخير والرضوخ للنظام ، وكانوا يكونون سعداء فضلاء لولا
ما تسرب اليهم من مساويء الجماعات .

والحرية والمساواة وسلطة الأمة من المواد الرئيسية في
العهدة الاجتماعية ، حتى أن روسو أدخل ذلك بنصه في بيان
الذي سماه « حقوق الانسان » .

والرأي الذي كان سائداً في زمن روسو أن الانسان

فاضل وعاقل بالطبع وأنه لا يتحرك حركة الا لسبب معقول :
هكذا كان الأدباء والفلاسفة يقولون في ذلك الحين ، حتى أن
رجال الدولة أيضا صدقوا هذا الزعم . من ذلك أن (تورغو)
المشهور رفع الى الملك بياناً في موضوع التريسة زاعماً أن
الفرنسيين سيتبدلون به بعد عشر سنوات بحال أخرى لا
تكاد تصدق . وزعم (نكر) أن الثقة بفضائل البشر الأخلاقية
أمر واجب . أما في ألمانيا فان (كانت) و (فيختي) قد انتصرا
لهذه النظرية قليلا حتى انبرى لتفنيدها واظهار بطلانها كبار
الفلاسفة مثل (هيكل) و (استراوس) و (استوات ميل)
و (سبنسر) و (أوغست كونت) و (ن) و (رنان) ، وحتى
أن الاشتراكيين أيضا عدوا ذلك الزعم من قبيل المغالطة
المنطقية ، ويرى (زومر ماين) أن نظرية العهد الاجتماعي
ليست الا خيالاً .

أما نظرية سلطة الأمة فلا تزال اليوم من الدعاوى التي
لم يحققها الواقع ، فهي اذن بديعة من بدائع الخيال . واذا
حاولنا أن نتكلم عن الجماعة من حيث هي مقيدة بتلك العهد

نكون قد سقطنا في دائرة لا مخرج لنا منها ، خصوصا وان
فكرة العهدة لم تكن في زعمهم الا منذ كان البشر جماعة ، بل
لو كانت العهدة موجودة ضمناً بين جميع أعضاء الكائنات
الاجتماعية لما كانت أيضاً تشف عن قصد عام مشترك .

الفطرة البشرية :

ومن جهة ثانية فان العقل والحكمة ليسا من المواهب
الفطرية في الانسان بل هو ذلك الكائن الذي وجد بين أنواء
الصعوبات ، وهو الآن في حال توازن غير دائم . ويقول العلم
الفسولوجي (وظائف الأعضاء) وعلم النفس : ان الانسان
بطبعه مريض بقدر ما هو مجنون ، وان سلامة أعضائنا وصحة
آرائنا ليستا الا من قبيل المصادفة البهجة والفوز الكبير ، وان
عمل الدماغ بذاته أمر مشوش ، والقياسات المنطقية والآراء
السامية هما من الأمور التي اختص بها الخاصة من الفئة المتنورة .
والحاكم على ارادة البشر هو البنية والحاجة والطبع الحيواني
وقوة الخيال والأفكار الباطلة والأطماع والأغراض الشخصية
الى غير ذلك من العوامل التي تشبه هذه . واذا كنا نذهب

الى الظن بأن الانسان فطر على الفضيلة والحلم وترجيح المصلحة
الاجتماعية على المصلحة الخاصة فانما نكون قد خدعنا انفسنا
شرخداع . لأن طبع الهمجية والظلم الذي ورثناه عن جدودنا
لا يزال كامناً في نفوسنا الى الآن ! وان شكل الدماغ البشري
قضى على الانسان أن يكون أسير خيالاته وأوهامه من أول
يوم وجوده . والتهميج الشديد والشبهات والعواطف والسذاجة -
كل هذه من خصائصه التي يمتاز بها . ومن هذا يمكننا العلم
بأن آراء (روسو) في الطبع البشري خيال في خيال .
تأثير الاقليم في تكوين كيان الدول الطبيعي :

عامل الاقليم من أهم العوامل في تكوين كيان الدول
الطبيعي . والأوضاع السياسية والاجتماعية تتبدل بتبدل
الوسط . مثال ذلك الأقوام التي تعيش في المروج والمراعي
فإن ضرورة الوسط تقضي عليها بأن تحيا حياة بدوية .
ولحكومتها المركزية سلطة أبوية يقابلها ضعف في السلطة
الاستبدادية ، وتتحرك في قلوب تلك الأقوام دائماً آمال
الفتح والاستيلاء على أمم الارض . وبالعكس من ذلك

الأقوام التي تعيش بالصيد والقتل في الحراج فان لحكومتهم
المركزية قوة استبدادية خشنة تقابلها سلطة أبوية ضعيفة .
ويضاف الى جهلهم بماضيهم أنهم لا أمل لهم في الفتح
والاستيلاء .

سبب وجود الجماعات وتأسس الدول :

إذا بحثنا في منشأ أعرق الحكومات في القدم نرى أن
الباعث على اجتماع البشر وتضامنهم إنما هي ضرورة دفع
هجمات الأعداء عنهم . وكل شيء في القرون الأولى كان مخيفاً
لبنى الانسان ، وفي كل شيء خطر عليهم وتهلكة لهم . حتى
كان الاتحاد على صد غارة الأعداء من حيوان وانسان أول
فكرة خطرت على قلب أجدادنا .

لكل شركة نظام يلائم الضرورات التي اقتضت إيجاد
تلك الشركة من العدم ، وتكون هذه الضرورات في الجماعات
الابتدائية على نوعين :

- ١ - ضرورة دفع الطوارئ الداخلية على أعضاء الشركة
- ٢ - ضرورة دفع الطوارئ الخارجية على أولئك

الأعضاء.

فهذه الضرورة المزدوجة هي التي دفعت الجماعة الى تأليف حكومة تتولى تنسيق قوى أفرادها واستعمالها في الدفاع عنهم . ولكن ليس معنى هذا أن أفراد الجماعة اجتمعوا في حرج - كما يقول روسو - وتفاوضوا في مواد عهدة عقدت بينهم وانتخبوا منهم لهم رئيساً ، بل ان الرجل العاقل القوي الماهر من بين أفراد تلك العصبة هو الذي تغلب على اخوانه بمزاياه فكان رئيساً عليهم . والضرورات التي تبعث على وجود الحكومات في كل قطع من البشر هي التي حددت للرئيس حدود التنسيق والوظائف الادارية والعسكرية .

ان البشر فطروا على الأنانية وحب الذات والميل الى الشر ، وأقل اختلاف بين مصلحتي الفرد والفرد يحدث بينهما الخصومة والعداء ولكن التجارب علمت البشر أنه ليس من مصلحة الجماعة أن تحدث فيها حوادث القتل والسرقة ، وأن سلامة الأفراد وسعادتهم منوطتين بقمع مثل هذه المفسد والشرور ، وهذا هو الأصل الذي بنيت عليه الشرائع

والقوانين كافة .

سلطة الفرد على الجماعات :

علمت الجماعة بالتجارب أن خير من يرأسها في وقت القنص
وزمان الحرب هو الذي يجمع بين مزياتي المهارة واعتدال
الدم ، حتى أن الطير تختار لقيادتها والتقدم عليها عندما ترمع
الانتقال من اقليم الى آخر أشدها قوة وأنفذها نظراً ، فتراها
قد انفصلت عنه وتبعته من خلفه .

كذلك كانت الدولة في بدء تكونها وأبسط أشكالها .
وفي البتغونيين وأهل زلاندة الجديدة وسكان أستراليا نموذجات
كثيرة لهذا الشكل الدولي . أما الطسمانيون فلهم رؤساء غير
دائمين ، فكانت القبيلة الصغرى اذا عزمت على سفر أو حرب
انتخبت لها رئيساً عليها ، حتى اذا وضعت الحرب أوزارها
أو آب القوم من سفرهم أصبح رئيس الأمس كغيره من
الأفراد سواء بسواء .

الجماعات التي لا تعاني الحروب لا يكون لسلطة الفرد
أثر فيها . والفوئيجيون وهم قبائل يؤلف الواحدة منهم عشرون

أو أربعة وعشرون شخصاً ليس عليهم رئيس البتة . وقبائل الاسكيمو أيضاً لم يخطر على بالهم اقامة رئيس عليهم ، وقد دهشوا لأول مرة ألفت سفن الأوربيين مراسيها في سواحلهم عندما شهدوا من الجنود البحرية خضوعهم وطاعتهم لضباطهم .

تأثير الحرب في تعيين شكل الحكومات :

ليست الحرب الباعث الوحيد على وجود الحكومات الابتدائية ، ولكن الحكومة التي توجد لها ضرورات الحرب تكون تحت سلطة الفرد . وقد علم بنو الانسان منذ الحروب الأولى أن النظام يأتي بقوة عظيمة تفوق قوة الكثرة . وكثيراً ما تمزقت الجماعات الصغيرة وذهبت ضحية الفوضى والأغراض ، حتى أدركت النفوس القاسية ضرورة الانقياد للأمر والرضوخ للكلمة في ساعات الشدة ، علم هذا أجدادنا حق العلم بعد حقائق مرة وتجارب ظالمة ، وان استبداد ملوك أميركا الجائر لا يزال حتى اليوم مثالا وشارة لذلك .

الحرب أم الحكومات المستبدة كافة ، ولا شيء مثل

نشوب الحرب يسلم زمام السلطة والحكم الى يد الفرد مثال ذلك أن الخطر العام الذي تهدد رومة في القرون الأولى هو الذي أوجد سلطة الحكومة العرفية — Dictature — ولكن ما انفرت تلك الأزمة حتى عاد (سينسناتوس) زعيم تلك الحكومة الى محراثه . ومما يجدر بالذكر أن أكثر الممالك حياً للحرية أظهرت الحرب فيها رجالاتاً كان ظهورهم في بادئ الأمر بشكل الأبطال المدافعين عن مصلحة الوطن والحامين لحماه ، فلم يلبث أن نشأت السلطة الاستبدادية الى جنب ذلك العدو الذي يخشى على الوطن من أذاه .

الأمم الحربية ظلت — بحسب أقاليمها الجغرافية — محافظة على الحكم الاستبدادي في شكل الحكومة وخطتها . وكل بلاد واسعة الأرجاء كانت عرضة لهجمات جيوش الأعداء وظهور الثورات الداخلية فان حكومتها كانت استبدادية لا محالة . وعلى العكس من ذلك الأقطار الصغرى الآمنة بما يحيط بها من الجبال الطبيعية فان حكوماتها كانت بشكل جمهوريات صغيرة . فمملكة اليونان في الأزمنة القديمة ومملكة سويسرا

في الأزمنة الحديثة مثال للعمالك التي لا يعرف أهلها الاستبداد
 مادامت أرضها ضيقة الحدود لا يحتاج الى الدفاع عنها بالحروب.
 وقوم التركمان - وهم في حال البداوة - تشيرهم فكرة الخضوع
 لسلطة الفرد.

تأثير الصناعة في تعيين شكل الحكومات :

والصناعة وان لم تكن من بواعث تكوين الحكومة الا
 أنها من العوامل - بعد الحرب - على تعيين شكلها ، لأن الصناعة
 أول دواعي الأثراء ، وبالتالي أول سبب لوجود التفاوت بين
 الناس .

ما ارتقت الآلات قليلا على يد البشر حتى تبتعها الصنائع
 فتوسع نطاقها في حوض الجماعات الابتدائية ، فكان أرباب
 الصناعات والنشيطون من الزراع يأتون ينتاج يربو على
 حاجتهم ، فأوجدوا لهم ثروة من طريق بيع النتاج الزائد
 واستبداله . والذين صاروا بهذه الطريقة أصحاب ثروة استقلوا
 بصناعات خاصة .

ثم رأوا أنفسهم في حاجة الى المحافظة على ثروتهم من

اعتداء الفريق الفقير الظامع بها فسنوا لذلك قوانين ونظامات،
 أو بعبارة أخرى وضعوا للبلاد أساس الحكومة وشكلها .
 وهذه الحكومة التي أوجدتها الصناعة والتجارة تختلف
 طبعاً عن روح الحكومة التي أوجدتها الحروب ، لأن السلطة
 فيها ليست بيد الفرد ، بل ان للتجار أيضاً نفوذاً وكلمة فيها .
 مثال ذلك جمهورية البندقية وجمهورية الفلمنك قديماً فهما نموذج
 لهذا النوع من الحكومات . ومثل هذه الحكومة تختلف
 كثيراً في أوضاعها عن الحكومة الحربية . فالملك صاحب
 السلطة العسكرية لا يكون له بين حنايا الأمة وثنائها
 رقباة ، وأما الحكومة التجارية فيكون فيها طبقة من التجار والاعيان
 يتجسسون لصاحب السلطة أحوال الأمة ، وصاحب السلطة
 نفسه يعتمد على الأمة التي تكون عرضة وهدفاً لظلم طبقة
 الأعيان والتجار ولضعفهم .

تأثير سلطة الكهنة في تعيين شكل الحكومات :

وهنا لك قوة ثالثة في تعيين شكل الحكومات وهي
 سلطة الكهنة في الايمان بالأساطير والعقائد الباطلة وما

يزعمونه من الوساطة الكاذبة بين الخلق والحق أو بين الشعب
والهة الأساطير وتفسيرهم اراداتها ودعائهم اياها لتخفف من
ثورة غضبها .

مثل الكهنة أدواراً هامة جداً بين المصريين وبني
اسرائيل في الازمنة القديمة ، حتى كانوا في مصر يعبدون
الفراعنة بعد موتهم ، وحتى كان (رومولوس) و(ريموس) (١)

(١) (رومولوس) و(ريموس) ابنان توأمان ولدتهم الراهبة
(ري سيلفيا) خادمة معبد (فستا) بطريق الزنا ، وزعمت أن أباهما
هو (المريخ) اله الحرب . ففضى عليها سكان مدينة (آلب لوفنا)
عاصمة مقاطعة (لاجيوم) بأن توأدحية ، وقضوا على توأميها بأن
يرسلا الى أبيهما (المريخ) في مجرى نهر (تيبير) . فألقاهما اليم في
سفح جبل (بالاتين) تحت شجرة من التين ، والتقطهما أحد الرعاة
فترعرا عنده . ثم التحقت بهما عصابة من اللصوص وأهل الدعارة
فعاثت معهما فساداً في الارض . وانتهى الامر بالتوأمين أن عادا
الى جبل (بالاتين) فشيذا هنا لك مدينة أراد كل منهما أن يسميها
باسمه ، الى ان قتل (رومولوس) أخاه (ريموس) سنة ١٣٧٦ (ش) قبل
الهجرة وأطلق على المدينة اسمه . وهي الان مدينة (رومة) عاصمة إيطاليا
التي لم يرض مؤسسها لنفسه أن يكون ابن زنا وقاطع طريق فقط بل

ابنين لآله الحرب ، ولا يزال لامبراطور الصين وملك سيام
مثل هذه الالقاب وهذه المكانة الى اليوم.



وبالجملة فان القوة السياسية نتيجة ارتقاء اجتماعي .
والضعفاء دائماً طعمة للقوي . وكما تكون القوة مادية فقد
تكون أيضاً دينية وأخلاقية أو فكرية وربما تكون في بعض
الأحيان اقتصادية . ويقول (ماركس) ان القوة الاقتصادية
هي العامل الوحيد في القوة السياسية ، الا أن هذا زعم غير
صحيح ، وان كانت القوة الاقتصادية قد لعبت دوراً هاماً في
تاريخ الأوضاع السياسية .

الحكومة السياسية ، وتأثير التضامن في تكوين الأمة :

الحكومة السياسية حادث من الحوادث الاجتماعية ،
وهذا الحادث لا يكون الا على نوع واحد ، ومهما تفاوتت
زاد على ذلك أنه سفك دم أخيه في سبيل تخليد اسمه ! وقد اتخذ
الرومانيون هذه الحادثة مبدأ تاريخ لهم .

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

الجماعات في صغرها وكبرها فهذا التفاوت بينها بالدرجات
لا بالطبائع.

يرتبط الناس بعضهم ببعض بروابط التضامن الاجتماعي،
وبهذا التضامن فقط يمكننا أن نستوفي حاجتنا. إذ حاجات
الناس وقابلياتهم متفاوتة ومختلفة بحيث تقضي على أفراد البشر
بالتضامن والتعاون على طريقة توزيع الاعمال والوظائف فيما
بينهم.

تعدلت خطة أجدادنا الاجتماعية بفضل سمة النشوء عند
ما انتقلوا من دور التوحش الى دور البداوة، فأحدث قبائل
كثيرة بما طرأ عليها من ضرورات الاقليم أو مقتضيات
الحروب وكان من اتحادها مجموع جديد هو ما نسميه « أمة ».
ثم انتسخت عادة قتل أسرى الجيش المغلوب منذ ظهرت
طريقة الاسترقاق الزراعي وطريقة الزعامة فصاروا يستعملون
هؤلاء الأرقاء في المزارع، وقضى البشر على تلك العادة القضاء
الاخير بعد أن ظهرت الصناعة الكبرى بمظهر آخر وصار
وجودها متوقفاً على توفر شرائط ووسائل معينة.

هذا الارتقاء هو الذي أوجد القوميات ورفع الرؤساء
الى منصات الملك ، ومع ذلك فان الملك كان قبل كل شيء أكبر
قائد في الجيش . وتاريخ قدماء المصريين والآثوريين وتقاويم
أمم أوروبا دليل على ذلك .

حياة الجماعة ، وارجاع التضامن الى مبدئين :

يرى بعض علماء الاجتماع أن للجماعة حياة حقيقية ،
ويذهب الى وجود ضمير اجتماعي غير ضمير الافراد . وقد يما
كان افلاطون وأرسطو يتصوران الجماعة بصورة كأن عظيم
حي كأنما هي حيوان ذو مئات من الرؤوس . ومن مؤلفي
زماننا أناس مثل (فورمس) يزعمون أن الجماعات ذوات حياة
حقيقية ، ويقولون في الاستدلال على صحة زعمهم : لننظر في
سنن الحياة التي تدار بها الصفة العضوية في الجسم الحي ، فقد
أجمع المشتغلون بالعلم الفسيولوجي (وظائف الاعضاء) على أن
الطبيعة الاولى من الطبائع الأساسية للجسام الحية هي أن
يعمل كل عضو من أعضاء مجموع الجسم الحي على ما فيه بقاء
حياة مجموع ذلك الجسم . مثال ذلك أن النبات مؤلف من

الجدور والاوراق والزهور وغير ذلك من الاعضاء ، وكل واحد منها يسمى منفرداً لما فيه بقاء حياة المجموع .

وهذا التضامن يمكن ارجاعه الى مبدأين اثنين :

الاول — توزيع الوظائف بين الأعضاء المختلفة ، وتعيين حدود هذه الوظائف .

الثاني — وجود غاية تسمى الاعضاء لها من طريق التضامن .

وهذان المبدآن يوجدان في كل جماعة من جماعات الانسان والحيوان . وذلك لان توزيع الوظائف اذا لم يوجد في جسم فمن العبث البحث عن تكون العضوية في ذلك الجسم فاذا رأينا مثلاً أكمة من الرمل متشابهة الأجزاء والاقسام وكلها تقوم بوظيفة واحدة نحكم بأن هذه الأكمة الرملية ليس لها وظائف متوزعة بين اجزائها ، وبالتالي لم تتكون العضوية فيها . وكذلك تكون الحالة في المجتمع البشري ، فإن الفريق من الناس اذا كان كل فرد من أفرادهِ يعيش على اعتزال واستقلال ولا تتألف منه جماعة — فهذا الفريق لا يزال في طور التوحش .

توزيع الوظائف :

تبتدي العضوية عند ما تتوزع الوظائف على أجزاء المجموع ، كأن يشتغل أحد أجزاء النبات بامتصاص عصارة التراب ويلبس جزء آخر منه طبقات النسيم ليتنفس منه ويجعله تقياً . وكذلك شأن البشر اذا وزعوا الوظائف فيما بينهم ففترغ بعضهم لحث الارض وآخرون لنسج اللباس وغيرهم لتشييد المنازل — ففي هذه الحال تصح تسمية هذا الفريق من الناس « جماعة » .

يذهب (ميلان) الى أن توزيع الاعمال في العالم الاقتصادي من حيث الأدوار يشبه توزيع الوظائف في العالم الفسيولوجي . وهذا التوزيع يوجب خصوصية الكائن الحي كما يوجب خصوصية الجماعات وواجباتها وأعمالها . مثال ذلك أن المعدة في الكائن الحي لا تعمل عمل القلب ، كما أن القلب لا يعمل عمل المعدة . ومما تقدم يتبين أن توزيع الوظائف في تحقيق الحياة وظهورها قائم بمعنى التضامن والتعاون ، فالدماغ مثلاً لا يعمل بنفسه ليحصل على غذائه بل ان المعدة هي التي تعد

له غذاءه والقلب يرسله اليه . وكذلك القول في الجماعة فان من
الضروري أن يتولى بعض أفرادها أمر الدفاع القومي بينما
يكون البعض الآخر قائماً بقضاء المصالح العامة . فهذه الصلة
وذلك التضامن بين الاعضاء العاملة هما من الاعمال التي يقصد
بها المحافظة على مجموع الجسم الذي هو الجماعة . وكل عضو
عامل يكون بالنسبة الى الأعضاء الأخرى واسطة وغاية في
آن واحد : الزارع خادم للحاكم والحاكم أيضا خادم للزارع ،
وكل عضو من أعضاء الجماعة عون لزملائه .

هذه الأعمال بمجموعها سلتقات في دائرة الحياة ، وكل
قوم وكل أسرة في هذا المجتمع البشري تتألف منه ومنه دائرة
حيوية كهذه الدائرة .

الأجهزة الحيوية في الدولة :

بحث (سبنسر) في الكائنات الحية فرأى فيها ثلاثة
أجهزة كبرى لثلاثة أنواع من الوظائف : الجهاز الهضمي ، والجملة
العصبية ، وجهاز التنفس .

كذلك الحال في الدولة : ففريق فيها يعدّ له مجموع حاجته

من الغذاء ، وفريق ثان يتولى ادارة الدولة والاشراف على صلاتها بالخارج ، وفريق ثالث - وهو الفريق المتوسط - يتعهد توزيع نتاج الأرض ليتصرف به الآخرون .

هذا العمل أشبه بجهاز الدورة الدموية في جسم البشر ، وأنت ترى أن الزراعة والحكومة والتجارة أعضاء ثلاثة تقابل أعضاء الحياة الثلاثة التي تتولى ادارة حياة الحيوان .

الا أن هنالك ملاحظة لا ينبغي لنا اهمال النظر فيها ، فلسائل أن يسأل : « هل يجوز لنا الحكم على الدولة بانها حية بمجرد توفر هذه الاقسام فيها ؟ ان آلة الساعة أو آلة الباخرة تشبه الكائنات الحية ، فهي مثل الأحياء مركبة من أعضاء تتوزع الوظائف بينها وتعاون على اتمام عملها ، الى حد أن الأطفال والمتوحشين من البشر يعتقدون بأنها كائن حي : اذن فما هو الفارق بين الآلة ذات الحياة وبين الآلة غير ذات الحياة ؟ »

يقول (لايننس) : « الآلة المتحركة المركبة من الخشب أو من الحديد ليست بذاتها ذات عضوية متكوّنة ، في حين

أن لكل كائن من الكائنات الحية عضوية متكونة وحياة
مستقلة. وكل عالم حيّ جامع لألوف من العوالم الحية على
درجات متفاوتة .

وقد برهن (فيرخوف) و (كلود برنار) على أن كل
حيوان مؤلف ومركب من حيوانات كثيرة أبسط وأحط
منه . وفي أجسامنا كائنات كثيرة ذات حياة مستقلة ، وهي
تحيها بالغذاء الذي تمتصه من دمائنا . ولهذه الكائنات الصغيرة
قابليات وأطماع وأمراض وحركات خاصة بها . وإذا شطرننا
الدودة شطرين ظل كل واحد منهما حياً . نعم إن الحالة في
الحيوانات الراقية ليست كذلك ، ولكن من أعضاء جسم هذه
الحيوانات - كالأظافر والشعر مثلاً - ما يحيى مدة بعد موت
ذلك الجسم ، وطول أظافر الانسان وشعره بعد موته دليل على
وجود الحياة فيهما . كذلك يمكن الصاق أذنان الفيران
المتعددة بجسم فأر واحد واتصال الحياة بعد ذلك بين الأذنان
المتعددة وبين جسم ذلك الفأر .

سنن الاجتماع في المحافظة والتجديد :

ان ما تقدم معنا عن وجود ضمير اجتماعي خارج عن
 ضمائر الأفراد هو أمر لم يقم عليه برهان بعد . كما أنه لم يثبت
 لنا تكون عضوية اجتماعية خارجة عن عضوية الأفراد . وكل
 ما ننقله من هذا القبيل إنما ننقله ونذكره على سبيل القياس
 والاستعارة ليس الأ .

ولكن الذي لا مرية فيه أن للعالم الاجتماعي - كالكائنات
 الطبيعية - نواميس وسنناً ثابتة : فأول ذلك أن الأجزاء التي
 يتألف منها مجموع الدولة مرتبطة بعضها ببعض بحيث لا يحدث
 في أحدها حدث حتى يتأثر به البعض الآخر بسرعة .

وبناء على هذه السنة الاجتماعية يجب على المقتنين
 والمشرعين أن يكونوا من الدولة بمنزلة الأطباء فلا تقوتهم
 الحيلة والحذر وحسن التبصر فيما يعملون . اذ ربما ينصرفون
 الى مداوة الضعف في أحد الاعضاء فيفوتهم في أثناء ذلك
 النظر الى غيره ويحدث على أيديهم مرض آخر شر من الذي
 كانوا يحاولون مداواته .

وعلم الجماعة ينحون جهة نحو نصره المبادي الجديدة
 لما في المستقبل من أشكال الحياة الاجتماعية التي تفضل الحياة
 الماضية ، ويحض من جهة ثانية على الاحتفاظ بالقديم وينصح
 للأمم برعاية ماضيها ومقوماتها وخصائصها وأن لا تقبل على
 التعديل والاصلاح الا بالتدريج . ونحن اذا نظرنا في حقيقة
 الامر نجد أن ارتقاء الأمة وتقدمها في سبيل الحضارة منوط
 قبل كل شيء بتغير تلك الأمة . وهذا يكون باتصافها بأوصاف
 جديدة وبالتالي قبولها التغيير بالتدرج البطيء . وفي كل
 الاحوال يتوقف الارتقاء على أمرين اثنين :

الأول — وجود قابلية التبدل ،

الثاني — الثبوت والتأني .

وواجب على كل أمة لتترقى في معارج الحضارة أن
 تمسك في بادئ الامر بالنواميس الثابتة والقطعية .
 وصفوة القول أن الشرط الأول لاتساع نطاق الحضارة
 في أمة من الأمم انما هو شرط مزدوج ويظهر طرفاه بمظهر
 التناقض والاختلاف . وأي تناقض في الظاهر أكبر مما بين

ضرورة تمسك الأمة بمبادئها وأوضاعها ومقوماتها وبين
 ضرورة عدم التمسك بهذه الأمور؟
 جهود الأمم القديمة في تقاليدها:

ان من الصعب اكتشاف مركز التوازن الصحيح بين
 هاتين الطبيعتين والعض عليه بالنواجذ . ونادراً ما انتهت
 الأمم الى حل هذا اللغز المعقد . اذ التعتت في التمسك بالقديم
 من العادات والأوضاع زمناً مديداً — كما فعلت الصين —
 أكبر مانع للتقدم والارتقاء ، كما أن التسرع في التحول من
 حال الى حال يزيل من الأمة ومن مقوماتها خاصة الالتصاق
 والارتباط ، وليس بهد هذا غير الانحلال والاضمحلال .

أما القابلية وتبدل المقومات فليس لهما معنى غير معنى ملكة
 الاتقياد للعالم الخارجي، ولقد كاد يكون طراز الحياة في القديم
 سواء عند الناس أيا ن وجدوا . ولهذا كانت ضرورة التحول
 ضعيفة عندهم وتولد القابلية لذلك بطيئاً فيهم، حتى أن بعض الأمم
 القديمة ظل عصوراً لا يشعر بضرورة تحوله عن طراز معيشتة،
 لأنه كان على اتصال دائم بالأقوام التي هي متوحشة مثله فلم

يكن يجد أمامه ما يدعو به إلى التعديل والتبديل ويرغبه بالتقدم
 والارتقاء، وظلت فكرة التقليد فيه جامدة تجاه نموذجات متماثلة.
 والسرى في جمود الأمم القديمة عند تقاليدها وعاداتها أنها
 مدفوعة إلى ذلك بضرورة الذب عن كياناتها والمحافظة على حياتها،
 لذلك لم يكن أحد ليهتم بأمر الفرد، بل لم يكن للفرد أن يحيا
 حياة مستقلة، ومن الأمور الطبيعية في نظرهم أن يضحي الأفراد
 باسم المصلحة العامة. فالحرية الشخصية في تلك الأزمان كانت
 من قبيل الأوهام التي لا تخطر في بال أشدم طرفاً. ولقد
 اتخذ بعض عباد الخيال نموذجاً للحرية من جمهوريات اليونان
 التي كان أفراد الناس فيها راسفين في قيود من المنظمات لا قبل
 لنا اليوم بحملها والتقيدها، تلك المنظمات التي لم تعترف بحرية
 التدين بل ولا بحرية التربية والتهذيب، وفي اسبارطة لم يكن
 لأفراد الشعب حق الحرية في ترتيب ما كلهم وكلهم ملزمون
 بتناول الطعام على مواعيد عامة. وكان الداعي إلى الإصلاح
 والتجديد في المدنيات الابتدائية يعد عدواً، حتى أن الأمة
 بمجموعها قامت على سقراط تطالب بأعدامه !

هذه النظمات ضرورية بحكم البديهة في الأمم التي
 يتهددها العدو الاجنبي في كل يوم . والرومانيون هم الذين
 نجحوا قديماً في اكتشاف مركز التوازن بين طرفي التثبيت
 وقابلية التحول . لأن الفتوحات أوجدت صلة دائمة بين رومة
 والأمم الأجنبية ، وكان ذلك باعثاً لها على ادخال التعديل في
 أوضاعها ونظاماتها بما يظهر لها من العوامل الجديدة . وأسعد
 أيام الرومانيين هي الايام التي تمسكوا فيها بمركز التوازن بين
 ذينك الطرفين .

اهتداء الانكايز الى مركز التوازن :

أما في هذه الأيام فقد أحدثت الاكتشافات العلمية والصناعية
 وسرعة انتقال الآراء والأفكار احتكاكاً بين المدنات المختلفة
 كان من نتيجته تعرض الأمم لتبدل وتغير عظيمين في أسباب
 حياتها وبقائها ، حتى صار من النادر العثور على توازن صحيح .
 وهذا التبدل السائد هو مصدر الثورات المتعاقبة . وأمة
 الانكايز هي وحدها التي حذت حذو الرومانيين في التمسك
 بمركز التوازن بين الاحتفاظ بالقديم والأخذ بالحديث .

تمسك الانكليز - دون غيرهم - بأوضاعهم السياسية والاجتماعية التي مرت العمور عليها ، وما زالوا يصلحونها بتؤدة وانتظام وبلا تردد . وحرية بلاد الانكليز ليست من عمل (كرومويل) ولا من آثار أنصار الجمهورية عام ١٦٤٩ (١)

(١) لما اشتدت وطأة الاستبداد في انكلترا على عهد (شارل الاول) من أسرة (ستوارت) أخذ زعماء الانكليز وكبارهم يهاجرون الى أميركا حتى خلت بعض الجهات من سكانها فاضطرت الحكومة الى منع المهاجرة . وفي يوم اعلان المنع رسمياً كان في نهر التيمس بعض سفن لنقل المهاجرين وكان بينهم (كرومويل) فخالته الحكومة دون سفرهم ، ولما فقد الاهالي وسيلة الخلاص بطريقة المهاجرة لم يبق لديهم الا اعلان الثورة التي عين (كرومويل) في أثنائها عضواً في مجلس العموم ثم قائداً عاماً للجيش الذي من حزب البارلمان . ثم أعلنت الجمهورية في بلاد الانكليز فعين (كرومويل) رئيساً عليها وسمي (لورد بروتكتور) . وأخذ باعادة الابن والاصلاح للبلاد ، الا أنه أظهر شدة نفرت منه النواب والشعب وآخذ التاريخ عليها (سنة ١٠٢٧ هـ . ش ١٦٤٩ م . ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

م . ش بل هي بنت التاريخ الانكليزي، وهذه العظمة والقوة التي يباهي الانكليز بهما نتيجة التوازن المعتدل بين التثبيت وقابلية التحول.

يتبين مما تقدم أنه ينبغي لكل أمة أن تكون ذات أخلاق وتقاليد ثابتة لا تتبدل بسرعة وأن تكون أخلاقها وعاداتها — في الوقت نفسه — لينة الى درجة يمكن معها أن تتبدل بالتدرج . والتاريخ مملوء بأقاص الأمم التي لم تدرك معنى هذا اللغز المعقد .

الارتقاء خير من الثورة :

ان للطبيعة الأساسية للجماعة نتيجة كبرى غير النتيجة السابقة وهي أن « طريقة الارتقاء » خير من « طريقة الثورة » ولكن يتفق في بعض الاحيان أن تكون العملة التي تطرأ على العضو لا ينقذه منها غير الانقلاب ، كـ بعض الأمراض التي تباغتها الحمى فتذهب بها في مثل هذه الحال يكون الانقلاب من الضروريات وبالجملة فإن « الارتقاء » سنة عامة و « الثورة » أمر شاذ .

والثورة تكون مشروعة اذا جاءت موافقة للرأي العام
وآمال الأمة ، وهذا النوع من الثورات هو الذي تشور فيه
عواطف الامة كلها . والثورة — من أي طريق أتت — تدل
على تبدل أساسي .

فالإصلاح هو أن تتسع دائرة الحقوق اتساعاً طبيعياً ،
وعلى العكس من ذلك الثورة فهي الانتقام ، وهي حركة غير
طبيعية تكتنفها الفظائع وتحيط بها الآلام .

الثورة أزمة مهلكة تنهياً للبلاد اذا فات وقت الإصلاح
الذي لم ينفذ عند الحاجة اليه ، فيم المرض جميع أطراف الجسم
الاجتماعي ، ثم يتمخض بها . وذلك أن النشوء الطبيعي قد
يعترضه في سبيله عائق يمنعه من أن يأخذ حده ، فتثور الحياة
الاجتماعية التي كانت تحت ضغط ذلك العائق وتنفجر فجأة
مخطمة ما حولها من القوى الضاغطة . فالثورة ليست قاعدة
ولكنها حادثة .

والحكومة اذا كانت بشكل لا يلائم الحال والوسط
وآمال الأمة ، ولم يكن للأمة وسيلة شرعية — غير استعمال

الشدة - للتخلص من شكل الحكومة الذي لا يحتمل ،
 فحينئذ يكون قد أزف وقت ظهور الثورة . من أجل ذلك كان
 من الواجب تنفيذ الإصلاح عند الحاجة إليه ، والأكثر
 للأمة القوية أن تستعمل حقها الطبيعي المشروع في تعجيل تنفيذ
 الإصلاح قبل فوات وقته . وعلى هذا فتوراة الهولنديين (١)

(١) لم يكتب (فيليب الثاني) ملك اسبانيا باخلاء مملكته من
 البروتستان ، بل صار يتدخل في الممالك الاجنبية لهذا الغرض . ولما
 كان أكثر سكان (هولندا) التي هي وطنه الاصيلي على هذا المذهب
 أخذ يقاوم البروتستانية والهولنديين الذين فطروا على حب الحرية
 والحق ، فوجه على شقيقته (مرغريت دي برمه) منصب الولاية العامة
 على هولندا وجعل السلطة الحقيقية في يد مستشارها الكردينال
 (غرانفلا) ونقض نصوص العهد برسالة جيشاً اسبانيا الى هولندا
 وأسس محكمة نفتيش وكثر اعتداء الموظفين الاسبانيين على الاهالي ،
 حتى ثار الشعب في بعض الجهات فهجم على الكنيسة الكاثوليكية
 ونهبها . ثم تولى قيادة الحزب المعارض البرنس (غايوم دورانج) والكونت
 (انمونت) وهما من أكبر القواد . فغضب ملك اسبانيا وعزل شقيقته
 عن الولاية العامة وولى عليها (دوق ألبا) وعززه بجند جديد .

ولما شعر كايوم دورانج وزملاؤه الزعماء بقرب الخطر خرجوا

على الاسبانيين، والانكليز على أسرة ستوارت (١) المالكة،

من هولاندا احتياطاً الا الكونت اغمونت فانه أعرض عن نصح
اخوانه وبقي في البلاد الى أن وصل دوق ألبا فسجنه أولاً ثم أنهم
باهانته له وحكم عليه وعلى الاميرال (هورن) بالاعدام ثم أوقد النار
في ساحات المدن وجعل يحرق الاهالي البؤساء، وألف مجلداً سماه
(مجلس الثورة) وفي ثلاثة أعوام فقط أعدم هذا المجلس وأحرق ثمانية
عشر ألف هولندي. وأطلق الهولنديون على هذا المجلس اسم
(مجلس الدماء)

وعلى أثر هذه المظالم الشنعاء أخذ الهولنديون يفرون الى ألمانيا
وانكلترا وهناك ألفوا جيوشاً منظمة ومسلحة وعادوا الى هولندا
بقيادة (كليوم دورانج) لمقاتلة الاسبانيين في صفوف الشعب الذي
نهض للثورة. وأنشأت جالية الهولنديين في انكلترا سفائن لافلاق
الاسبانيين في سواحل هولندا، الى أن أعيا الامر فيايب الثاني فعين
ثمناً لرأس كليوم دورانج فجاءه به أحد أتباع الجزويت (الكاثوليك)،
الا أن قتل زعيم الثورة لم ينفع الاسبانيين لان ابنه (موريس) قام
مقامه في الزعامة من كل الوجوه (سنة ٩٦٢ هـ . ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

(١) راجع هامش صفحة ٥٢

والألمان على نابليون^(١) والشعوب الإيطالية على الدولة

(١) حط نابليون بونابرت من كرامة مملكة بروسيا بمعاهدة (تلزيت) ، فذهب نصف المملكة ضيقاً وتمزيقاً وضربت الغرامات الحربية الباهظة على النصف الآخر ، واحتلت الجنود الفرنسية قلاع بروسية على أن تبقى فيها إلى انتهاء دفع الغرامات وتتولى بروسيا نفقاتها ، إلى غير ذلك من الأمور التي ذهبت بصبر الألمان فأخذ أديباؤهم يذكرون الشعب بمجده المؤثر وعظمته القديمة وينبهونه إلى ضرر الانقسام وعواقبه ، حتى كان لذلك الأثر النافع في طبقات الأمة وتألقت (جمعية الحمية Tugend Bund) فدخل فيها القسم الأكبر من أعظم الألمان ، ثم جعلوا ينظمون جيوشاً متطوعة لمداد الحكومات التي تحارب نابليون ، ومنها جيش اللجئون الأسود (Légion noire) الذي كان يقوده (دوق برونسويك) في حرب التسامع نابليون

وأخذ (آرندت) استاذ التاريخ العام في جامعة (غريسوالد) الألمانية يؤلف الكتب في إيقاظ الرأي العام الألماني فيبيع في مدة شهرين أو ثلاثة أشهر فقط مائتا ألف نسخة من كتابه (روح الزمان) وطرده (آرندت) من ألمانيا بأمر نابليون .

وفي مقدمة الذين كانوا يعملون لهذا الغرض (فردريك ويلهلم) ملك بروسيا ، فقد ألف وزارة من محبي البلاد عملت للإصلاح ، وأهم

التمسوية^(١) إنما هي ثورت محقة ومشروعة .

رجالها (ستين) رئيس الوزارة و (شارنهورست) وزير الحربية ، فعمل الملك ووزارته على اصلاح الجندية، وكانت معاهدة تيلزيت قد حظرت على بروسيا أن تجند أكثر من ٤٢ ألف جندي ، فقابل البروسيون ذلك بأن أنزلوا مدة التجنيد الى ثلاث سنوات وصاروا يعلمون الشبان قواعد الجندية بسرعة و يستبدلونهم بأخرين على أن يجيبوا أول دعوة الى الجندية متى أرادت الحكومة ، وبهذا تمكنوا من إيجاد بضع مئات من ألوف الجنود النظامية المحفوظة أسلحتها وألبستها في المخازن .

وأسس (ستين) مدارس كثيرة وأطلق للزراع الأرقاء حريتهم ومنع التعذيب والعقوبات الصارمة الباقية من عصور الزعامة ولما رأى نابليون ثمرات ادارة هذا الرئيس سعى لتنحيته عن السلطة ، الا أن الذين خلفوه لم يتركوا طريقته في الاصلاح .

ثم دخل نابليون في حرب مع الروس خذلت فيها جنوده . فأذاع (فردريك ويلهلم الثاني) ملك بروسيا بياناً أعلن فيه حرب «الاستقلال الألماني» فأجابه الشعب الى ذلك بكل فرح . وتطوع تلاميذ المدارس للحرب بقيادة أسانذتهم واشترك معهم الروس ثم التمسويون حتى أعادوا نابليون الى حدود فرنسا (سنة ١١٩١ هـ . ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

(١) تقرر في مؤتمر فينة أن تبقى (نابلي) في يد حاكمها القديم

طبيعة الثورة وواجب الحكومة من قبل ومن بعد :

الثورة في الاكثر الغالب تشبه انفجار البركان أو هبوب العاصفة : تعدد معداتها ببطء ، فتكون الفكرة الجديدة منحصرة بين أشخاص ، ثم تنتشر حتى تدرك الجمهور . كذلك هي المطامع تنبعث فيها الروح رويداً رويداً ، حتى يكون الامل بالتبديل عاماً شاملاً ، ثم يتحول الاستياء الى غضب كامن ،

وأن تكون أواسط إيطاليا للبابا ، والجانب الشمالي منها للتمسا ، وظلت أمارة (سافوا) التي في جزيرة (سردينية) مستقلة وهذه الامارة الصغيرة هي التي عملت فيما بعد على اتحاد إيطاليا واستقلالها .

ولما أخذت مبادئ الحركة القومية تنتشر في إيطاليا وتظهر نتائجها أرسلت الدول الكبرى الى تلك البلاد جنوداً لتسكين الحال ، إلا أن حكومة النمسا سلكت في ذلك طريق الهمجية وارتكبت المنكر من الفظائع ، ومع ذلك فإنها لم تتمكن من عمل شي ، وزادت الشعب تعلقاً بتلك المبادئ وسعياً لتحقيقها . الى أن أعلن فيكتور عمانوئيل الحرب على النمسا بمساعدة نابليون فانتصر عليها بهمة كافور وغريبالدي ، وأمضيت شرائط الصلح في (فيلافرانكا) ومنها أن ينجلي الاجتلال عن إيطاليا كلها الا البندقية (سنة ١٢٣٧ هـ . ش)

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

وعندئذ يكون جمهور الشعب على أهبة الاقتداح والاشتعال،
وأقل شرارة تظهر في تلك الاثناء تكون مدعاة لاضرام
نيران الثورة.

من الواجب على رجال الدولة في هذه الحال أن يبادروا
الثورة قبل اضطرابها بأن يتمجلوا تنفيذ الاصلاح. أما اذا حم
القضاء والتهبت نارها فما عليهم الا أن يتلافوا الضرر بأن
يتولوا ادارتها ويتعهدوا قيادتها.

لا أمن في الدولة عند نشوب الثورة، والاحقاد تتحول
مجاريها من حال الى حال بين كل دقيقة وأخرى، والتاريخ
تشحن صفحاته ابان ذلك بأنواع الجنائيات والفظائع.
والثورة أكبر هادم للثقة العامة بالبلاد، وبها تشتد المخاوف،
ويفقد الامن، ويعطل دولاب التجارة والصناعات، وينقطع
العمال عن الأعمال، وتصبح المصالح العامة مهددة بالمهالك.
لهذا كان واجباً على رجال السياسية أن يكتشفوا روح
الزمان قبل انتشارها، فيسلكوا في الادارة طريقاً يلائم
الرأي العام من قبل أن يحدث مالا محمد عقباه.

الشيوخ والشبان :

من الملاحظات الهامة في هذا الباب أن الشيوخ أقل استئناساً بالآراء الجديدة من الشبان ، وليس لهم من الجلد والرشاقة ما يساعدهم على سلوك الطرائق الحديثة . وقد ثبت في العلم الفسيولوجي أن الجريان العصبي يطوف الطرق المعتادة بأسهل مما يطوف الطرق الجديدة . فبينما الشاب يقتبس الفكرة المتكررة برفق اذا بالشيخ لا يستطيع اقتباسها الا بجهد . وسر ذلك أن الشيوخ قد أفوا ما أفوه من قبل ، وضعفت فيهم حركة المجموع العصبي حتى صارت لا تقاوم قوة الاعتياد القديم .
التظاهر عليه .

صعود الآراء الجديدة وسقوطها :

تتجلى روح الزمان في طبيعة الأزمان المختلفة وفي نزعاتها وميولها . وأدوار التاريخ المعظم هي الغضون الواضحة في جهة روح الزمان . والآراء الجديدة في آفاق الانسانية أشبه بالسكواكب الدراري : فتارة في صعود وآونة في انحدار . كذلك هي الآراء والمبادئ الحديثة فما ارتفع منها الآن الى

أوج العلي قد يصير في الغد تأفها ومنبوذاً من الناس . مثال ذلك
الثورة الفكرية في الرأي العام الأوربي التي أثارها الدعوة الى
الحروب الصليبية فقد طرأ عليها الضعف والوهن فانطفأ نورها
بعد ان شاعت وانتشرت في أرجاء أوربا فهاجت بها وهاجت .
ثم جاء دور النهضة (١) بعد دور الحروب الصليبية بقرن

(١) دور النهضة - Renaissance في أوربا يقابل دور النهضة
العربية في الشرق على عهد المنصور وهارون الرشيد ، فقد كانت الحرب
تنشب بين ملوك أوربا حتى اذا انتصر الواحد على آخر أخذ منه كتاباً
أو صوراً نفيسة بدلاً من الغرامة الحربية . واذا اكتشفوا كتاباً مفقوداً
أو تمثالاً مجهولاً أقاموا لذلك حفلات الفرح والابتهاج ولم يقصر
الباباوات عن الملوك في نشر العلم ، فقد افتتح البابا أوجن الرابع
جامعة رومة ونظم البابا نقولا الخامس مكتبة الفاتيكان وندب بعض
العلماء الأثريين للبحث في بلاد الحضارة القديمة عما اندثر من مؤلفات
الحكام السالفين . وأنفق المديجيون في فلورنسة وأنفوس الفاضل في
نابلي ولذريق مور في ميلان ملايين من النقود في سبيل العلم وسرت
هذه الحال الى كل صقع في غربي أوربا ، الا أن ايطاليا كان لها
القدح المعلي في هذا الامر لانها قبر رومة القديمة وأقرب الى الشرق
الذي كان يومئذ مركز الحضارة ولها معه علاقات تجارية . وكان

واحد . وتبعهما الانتقاض ورد الفعل . وكل هذا يؤيد ما قلناه
من أن لسكل دور آراء ونزعات خاصة به ، وكل منها يمكن
تطبيقه في حينه . فاستعداد نابليون مثلاً لم يكن لينكشف في
زمن الاعادة (١) .

اعتقاد العلماء في أرسطو الى ذلك العهد أنه معصوم عن الخطأ وبمنزلة
البابا في الكنيسة ، حتى يجد العلم عند اقتباس مذهبه من مؤلفات
العرب بشرحها ومسحها والاستنباط منها في دائرة ضيقة . فصار من
لوازم النهضة خرق هذه الدائرة التي تحولت الى بؤرة جهل ومستنقع
تقليد ، وهي لا يتسنى خرقها الا بالاعتماد على مؤلفات أحد الفلاسفة
القدماء ، لذلك قام (فيجين) الايطالي في فلورنسة فعمل على ترجمة
مؤلفات افلاطون وشرحها ، واقتبس هو وزملاؤه شيئاً كثيراً من
علوم العرب في انتقاد أرسطو . واسقاط طريقته وأنصارها من أعين
الطلاب . وكانت صناعة الطباعة والورق قد أخذت يومئذ في الانتشار
فصار لها الأثر الصالح في تقرب أجزاء الامرة البشرية بعضها من
بعض وانتشار الآراء والمبادئ الجديدة .

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

(١) الاعادة - Restauration - حدثت أكثر من مرة ، ففي

شهر ابريل من سنة ١١٩٢ هـ . ش أعلن تانيران وزير خارجية فرنسا

الزمان يبدد القوى التي كان عززها وأسمها ويوقظ قوى
أخرى لا تزال مجهولة، حتى كأنما القوى تدور مع رياح السعد:
وكم من أماني تقادم عهدا فانظفا نورها، وأخرى جديدة
تأخذ بضيائها الأَبصار.

روح الزمان:

روح الزمان لا تستقر عند نقطة واحدة: فهي تتفشى
في كل جهة متقلبة في ثنايا الامواج الضخمة، وهي كالنسيم
توجه وجهها الى كل أفق.

روح الزمان منبعث الحياة والحركة للآدم، وحركتها
مفعمة بالأسرار، فهي تنفذ فينا نفوذ الهواء الذي تنفسه.
وقد تكون مثل جراثيم الأوباء القاتلة.

روح الزمان تحرك بالأخص مجتمعات البشر الكبرى

أن نابليون بونابرت خلع بطلب مجلس الاعيان - على أثر دخول
اسكندر الاول امبراطور الروس مدينة باريس - وأعيد تاج الملكية
الفرنسوية الى أسرة بوربون فلبسه كونت بروفانس شقيق لويس
السادس عشر وأطلق عليه اسم « لويس الثامن عشر »

عن (التاريخ العام) تأليف (محمد مراد بك)

وتفجر في العواصم، وأضعف من ذلك تأثيرها في القرى والارياف.
 ووظيفة رجال السياسة بعد هذا البيان أن يبحثوا أولاً
 في مقتضيات الزمان وطبيعته الأساسية، وجدبر بهم أن ينتهزوا
 فرصة حلول الوقت لتنفيذها. وكل عمل يكون قبل حلول
 أوانه أو بعد فوات زمانه فعاقبته الخيبة والخسران.

فرض على رجال الدولة أن لا ينسوا أبداً قدر روح
 الزمان، فهي قوة حليقة بالملاحظة والاعتبار. ولما كان السياسة
 قد تولوا عملاً دقيقاً هو قيادة الأمم وإدارتها فن وظيفتهم أن
 يقوموا بواجب الدليل الماهر الأمين الذي لا يغفل طرفه عين
 عن العلم بجهة هبوب الرياح، ومبلغ اتساع أمواج البحر الذي
 تختر سفينة الدولة فيه، والا فقد تتسرب المياه الى داخل
 السفينة من ثقب صغير، ثم تذهب بها وبمن عليها.

وخلاصة القول ان الواجب الحقوقي يقضي على رجال
 السياسة بأن يجتهدوا في تطبيق مبادئ الزمان الجديدة في حينها.

— القسطنطينية : تشرين الثاني ، ١٣٢٤ —

أحمد شعيب

مكتبة المنار

لأصحابها

رضا وخطيب وفتون

القاهرة : شارع عبد العزيز

هي التي يجدر بك الاعتماد عليها

في طلب

كتب الدين والعلم والأدب والاجتماع

عامة

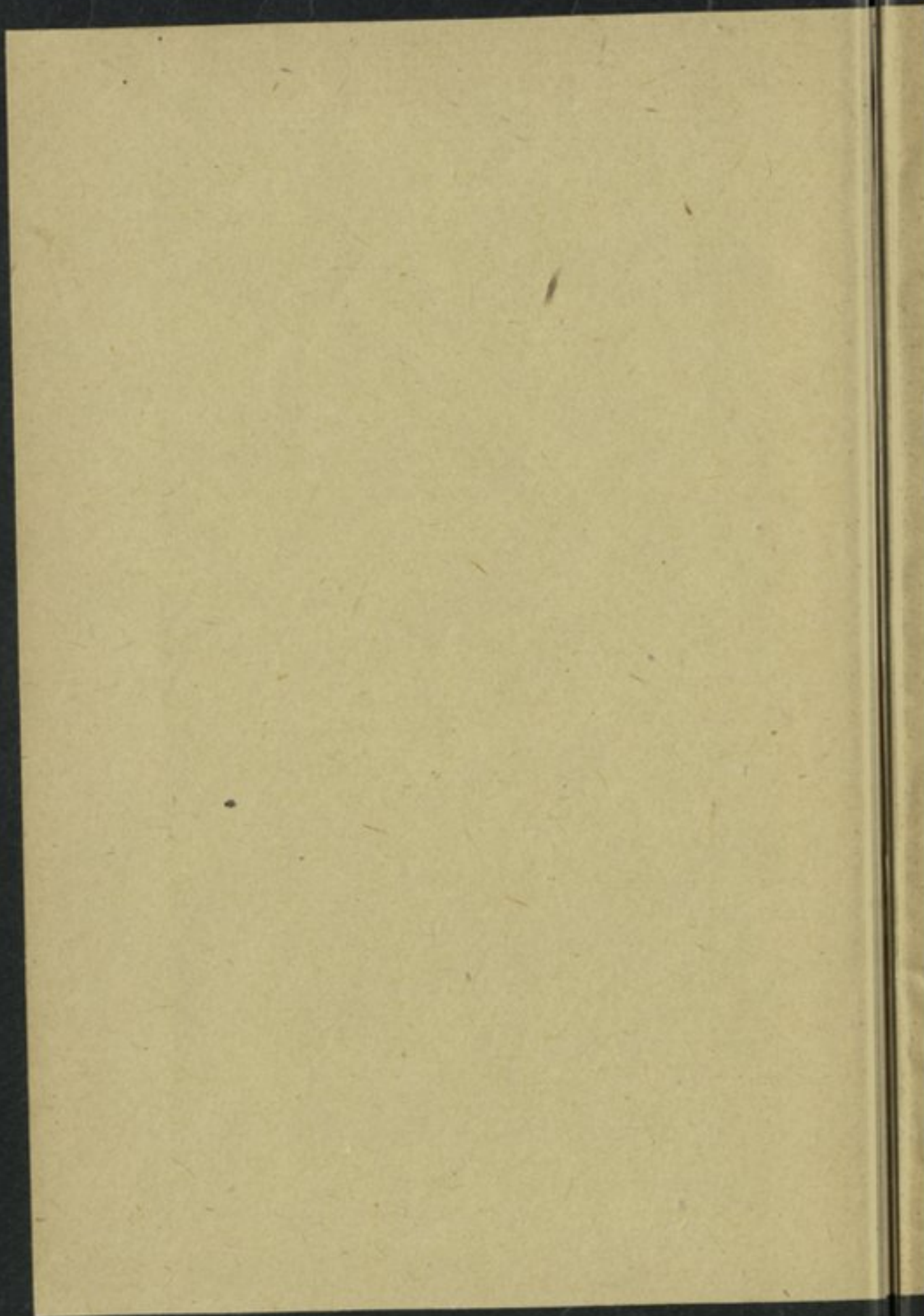
ومطبوعات ادارة المنار والمكتبة السلفية

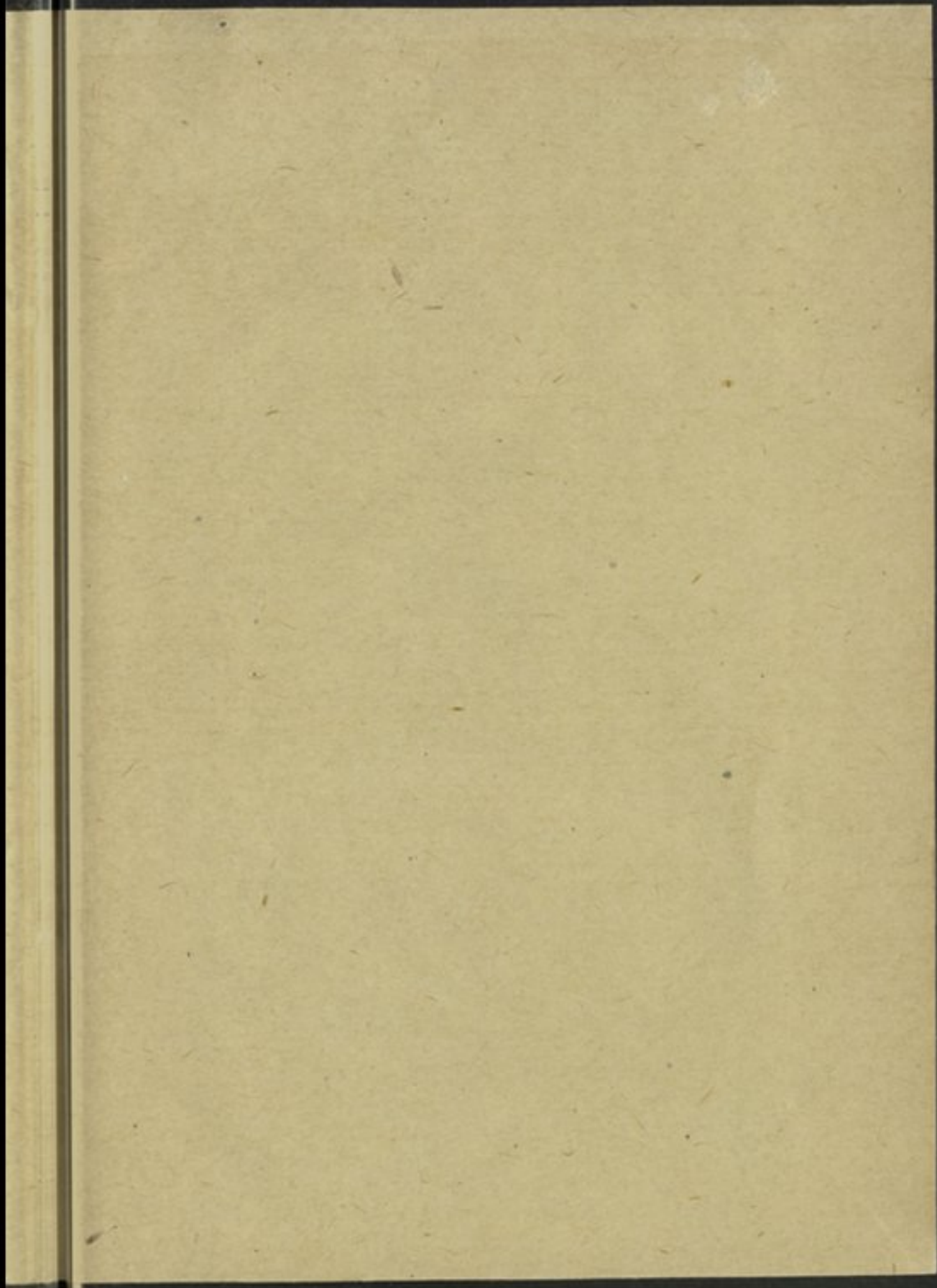
خاصة

وفيه أدوات كتابة وكتب مدرسية

أطلب الفهرس العام للمكتبة - عن هذه السنة

يقدم لك مجاناً





323.3:Sh56dA.c.1

الخطيب، محب الدين
الدولة والجماعة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01015002

American University of Beirut



323.3

Sh56dA

General Library

323.3
Sh 56dA
C.1